صورة المسيحيّ في الأدب الصهيوني

الدكتور حياة جاسم محمد

تعالج هذه الدراسة صورة المسيحي في نماذج من شعر الشاعر الصهيوني « سول تشيرنيخوفسكي » عن طريق جمع ما تناثر في شعره من الخصائص الجزئية والتفصيلات وضمّها إلى بعضها لتكوين الصورة الكلية بأبعادها السلبية وكذلك الإيجابية، إن توفرت، ثم توضح الخاتمة نتائج الدراسة ودلالاتها.

ومن الضروري لهذه الدراسة أن تعرّف، بدءاً، بالشاعر تشيرنيخوفسكي، وأن تقدّم عنه من الحقائق ما يساعد على التوصّل إلى بعض النتائج والدلالات. ولد تشيرنيخوفسكي عام ١٨٧٥ في قرية تدعى ميخايلوفكا وتقع على حدود أوكرانيا وكرايميا. وقد نشأت علاقات صداقةٍ ومودّة بين اليهود وفلاحي تلك القرية من المسيحيين، وأتيح للشاعر، في طفولته، أن يخالط أطفال المسيحيين بحرية. وفي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر كتب عدّة قصائد ألهمته إياها فتاة يونانية مسيحية تدعى ماريا فاليانو، ولكنه عَبْرَنَ اسمها في هذه القصائد فحوّله إلى « ميريام ». ثم تزوّج فتاة روسية مسيحية من أسرةٍ رفيعة، وأصبحت الفتاة من بعد أمّاً لابنتها الوحيدة. توفي الشاعر في فلسطين عام ١٩٤٣[١].

الأبعاد السلبية في صورة المسيحي

يعلن تشيرنيخوفسكي، بانفعالية حادّة، أنّ معاداة اليهود وكرههم والحقد عليهم قد تغلغلت في نفوس المسيحيين إلى حدّ أنها سمّمت أساسيات وجودهم بل وشوّهت ملامحهم فغدت وجوههم بشعة ملتوية:

على وجوههم القاسية المشوهة.
تحيا الكراهية متوهجة.
تحيا أمواج من الغضب وبحارٌ من السخط.
ملتهبة طافحة[٢].

لقد أصبحت قلوب المسيحيين أقسى من أحجار الرحى »[٣] وغدت عيونهم « باردة » كعيون بنات آوى »[٤]. ويحتلّ العداء والكره والحقد لا نفوس أفرادٍ أو جماعةٍ من المسيحيين وإنما قلوب المجموعة المسيحية بأجمعها، حيث تساهم مختلف فئاتها في مذابح منظمة، كما يقول الشاعر، ضدّ المجموعة اليهودية جميعها في روسيا. وإذن فالأمر لدى الشاعر ليس اعتداء أفرادٍ من المسيحيين على أفرادٍ من اليهود، وإنما هو عداء المسيحية لليهودية، ومن هنا يقرن الشاعر هذه الأحداث بالحملات الصليبية في القرون الوسطى، ويسمّي مسيحيي القرن التاسع عشر في روسيا « صليبيين » يتجوّلون من بلدةٍ إلى أخرى ناشرين الموت والدمار:

تتجوّل عصابة من الصليبيين
في المدن وهي تنشر الخوف.
لقد ذبحوا الناس في « آخن »
وسيذبحون قريباً في « ترير »[٥]

وليس في قلوب المسيحيين رحمة، إذ لا ينجو من مذابحهم يهودي حتى إن كان طيباً ولم يقترف سوءاً:

كلّ الأبرياء، كل الورعين.
تكوّموا أجساداً على أجساد[٦].

ويمارس المسيحيون مذابح لا إنسانية ضدّ اليهود، ويصوّر الشاعر، بانفعاليةٍ ومبالغةٍ واضحتين، ما يجري خلال هذه المذابح، فكل ما يُسمع ويُرى:

تأوهات محتضرين وأطفالٌ يبكون
أصوات نساءٍ تستعطف
أوان محطمة وملابس ممزقة
ودمٌ يجري كالماء في الطين[٧].

وحتى في أوقات السلم والهدوء، وحين لا يكون هناك عنف أو قتل، يتخيّل الشاعر وجود هذه الحوادث، فهو ينظر إلى وديان روسيا المكسوّة بالحشائش وإلى سهولها الواسعة وحدائقها العطرة، ويعتقد أن أجساد اليهود هي التي سمّدت هذه الأراضي ومنحتها خصبها ونماءها:

وديانك الرائعة بحشائشها المخملية
والامتداد الأخضر لسهولك
وقمح حقولك المنتصب مغلفاً بالذهب
وحقولك المُراحة المغطاة بالأشواك وبقايا الغلال
ومسافات الطرق، ومفترق الطرق فيك
وحدائقك الصغيرة العطرة.
في كل بقعةٍ حيث سقطت أجسادنا كومةً على كومة.
أجساد المخنوقين والمذبوحين[٨].

ويظهر المسيحيون شعر تشرنيخوفسكي « ساديين » متعطشين إلى الدم وجائعين لا يقنعون بغير اللحم البشري، ويمهرون في استخدام أساليب القتل والتعذيب لارضاء ساديتهم، فهم

يقتلون اليهود إما بخنقهم أو بقطع رؤوسهم أو برميهم في الحفر، مثل النفايات، ليدفنوا أحياء:

كومة على كومة، المخنوقون والمذبوحون منا.
هذه الحفر التي ترموننا، نحن الكائنات البشرية،
موثقين فيها، مثل الروث والنفايات،
لندفن هناك ونحن أحياء[٩].

وإمعاناً في السادية لدى المسيحيين يلجأ الشاعر إلى كتابة قصيدة قصصية عنوانها «شهداء دورتموند»، يصوّر فيها يهودياً قتله المسيحيون مرتين. ونص القصيدة نفسه غير متوفر، ولكن يتوفر مختصر جيّد لقصتها. يأخذ المسيحيون اليهودي وزوجته وابنتيه إلى الكنيسة - يلاحظ التأكيد المستمر على أن حوادث القتل تحصل في الكنيسة، ويرمون الزوجة وابنتيها من نهاية سلّم طويل ثم يقتلونهنّ، ويشقّون بلغوم الأب بسكينٍ تستخدم لذبح الخنازير - تلاحظ الإشارة الدينية مرة أخرى - فيغمى عليه لكنه لا يموت، ويطلبون منه، وهو في هذه الحالة، أن يحفر قبراً له ولزوجته وابنتيه فيفعل - من غير المعقول أن يتمكّن شخص هذه حالته من القيام بعملٍ مجهد كذلك العمل - ثم يطيع أوامرهم فيضع زوجته وابنتيه في القبر، وينزل هو من بعد ذلك ويدفن حياً، ويسمع صوته طوال الليل. وفي الصباح يفتحون القبر ويخرجون اليهودي منه مؤملين أن يكون قد عرف أن إلههم أقوى من إلهه فيتحوّل إلى المسيحية، ولكن اليهودي يرفض فيقتلونه مرة أخرى[١١].

ويبرز الشاعر مظهراً آخر لسادية المسيحيين يتمثل في أنهم يتعمدون أن لا يقتلوا اليهود قتلاً كاملاً، وإنما يتركونهم بين الحياة والموت ليتلذذوا برؤيتهم وهم يتألمون، ويظهر الذئب المتوحش أرحم منهم لأنه يقضي على اليهود وينهي آلامهم. وفي قصيدة واحدة عنوانها «قصيدة إلى الذئب» يحشد الشاعر عدداً كبيراً من الصور لتأكيد سادية المسيحيين، فهذا يهودي شُطرت جمجمته ولكنه ما يزال حياً، ويأتي الذئب فينقذه من آلامه:

وحين وجد جمجمة محطمة
وما زال صاحبها حياً يتنفّس
ويلتمس الموت
مزّق قلبها[١٢]

ثم يعثر الذئب على محتضرٍ آخر فيضع حدًّا لعذابه:

وحين وجد محتضراً
قد ذبح بسكين غير حادة
قضم حنجرته ملساء عارية
إنها نهاية للألم الرهيب[١٣]

وفي بقعة أخرى، قريباً من هذين الرجلين، يرقد «الراباي» يوزفا منذ أكثر من يوم وقد قطعت ذراعاه وساقاه، وفي معاناته يبصر أفعال الذئب، فيباركه وينتظر عونه وهو ما يفعله الذئب من بعد:

ثم رآه الراباي يوزفا
وكان، منذ أكثر من يوم،
مقطوع الذراعين وجسمه بلا ساقين
يتمدّد وهو ينزف متألماً
رآه وباركه مادًّا
عنقه إليه في حاجة:
«مبارك بين ذئاب المساء
مبارك من يفعل أفعال الله»[١٤].

ويستمّر الشاعر في تأكيد سادية المسيحيين، فهم يقتلون من اجل لذة القتل، ويستمتعون به وكأنهم يمارسون لعبة مسلية، وكلّما عانت الضحية أكثر زاد تلذذهم واستمتاعهم، فهم يشوون اليهود على ألسنة النار ليمتدّ سرورهم بامتداد عذاب الآخرين. ولذلك يقتل الأب اليهودي ابنتيه بيده خشية أن تجبرا على اعتناق المسيحية، فيقوم أبناؤهما بمثل تلك الأعمال:

قد يأتون، كما لو كانوا آتين إلى حفلة تنكّريّة.
ليصرخوا في طرب وهم يراقبون اللعبة
شيّ اليهود على ألسنة اللهب[١٥]

ولا ينجو من سادية المسيحيين حتى الأطفال والرضع، فهم يسحقون جماجم الأطفال بقضبانٍ حديدية[١٦]، ويطؤون أجسادهم بأقدامهم. وها هي طفلةٌ وطئت لكنها لم تمت وما زالت ترفس، ويأتي الذئب الذي خلّصَ سواها من اليهود من آلامهم فينهي آلامها بأن يأكلها:

وحين وجد رضيعةً موطوءة
جائعةً لثدي أمها
وما زالت ترفس -
خنقها حالاً، ومنحها الراحة[١٧].

ولا يتوانى المسيحيون في ساديتهم عن قتل الحوامل بطريقةٍ قاسية، إذ شقّوا رحم امرأة يهودية وتركوها وهي في آلام المخاض والجراح حتى جاء الذئب ووهبها الموت:

وحين وجد رحماً ممزقاً مفتوحاً
لكنه ما زال يمارس جهد المخاض
مزّق الجزء الذي كان حيًّا منه
فتحرّرت من العذاب[١٨]

ولا يحترم المسيحيون، لقسوتهم وساديتهم، موتى اليهود، فلا يدفنونهم بل يتركونهم في العراء:

تركوا الضحايا ركاماً
وقد عرّيت أجسادهم المذبوحة
على عوامّ المدينة أن يدفنوهم
ولم تستثن من ذلك نفس واحدة[١٩]

أو يلقونهم في حفرةٍ كبيرة بعد أن يمتّعوا أنفسهم بمرآهم زمناً كافياً:

خلال يومين كانت الجثث تتدحرج في البلدة
وفي اليوم الثالث ألقوها في حفرة[٢٠]

أو يرمونهم طعاماً للحيوانات:

لقد أسمنت لحومنا زمرة الكلاب.
وغذيتم قطيع الذئاب بجثثنا
في أكثف بقعةٍ من غاباتكم اللطيفة[٢١]

وهكذا تناثرت جثث اليهود في كل مكان تحت سطح الحقول الخضراء الواسعة ويعثر الثور بإحداها وهو يحرث الأرض، ويرى الفلاح ذلك فلا يأسف وإنما يلعن ساخطاً:

هناك كثيرون مثله، كومة غير معلّمة
يعثر بها الثور الذي يدوس القمح
ويلعن المزارع في غضبٍ وهو يحرث[٢٢].

ويتميّز المسيحيون، بالإضافة إلى ساديتهم، بضعف الوازع الأخلاقي فهم لا يتوقفون عند القتل بل يمارسون معه الاغتصاب:

اغتصبوا وذبحوا، وكل فردٍ منهم
حمل الغنائم في أكياس[٢٣]
ولكن لا أحد يكترث بما يحصل:
لم تلاحظ عين مرارة المغتصبات[٢٤]

ومن صفات المسيحيين تعصبهم الديني الذي يجعلهم يشنّون حملات القتل على اليهود خلال أعياد اليهود الدينية. وفي موجز لإحدى قصائد تشيرنيخوفسكي - لا يتوفر نصّها - عنوانها «عيد الاضطهاد» يظهر خوف اليهود في قريةٍ روسية من مذبحةٍ قد ينظمها المسيحيون ضدّهم عشية العيد، فقد طرقت أسماعهم بعض الشائعات، كما أنهم يتذكرون أن عيد الفصح عند المسيحيين - ووقته قريب من عيد اليهود يرتبط بموسم الهجمات على اليهود، وتهرّب الأمهات بأطفالهنّ، ولا يبقى غير الشيوخ[٢٥].

ويسيء المسيحيون استخدام دينهم، وبدلاً من أن يكون قرع الأجراس في الكنائس دعوة للمحبة والسلام والصلاة يغدو هذا القرع مصدر خوف وكره ودعوة إلى القتل لأن أجراس الكنائس تدعو المسيحيين إلى الشروع في مذبحةٍ جديدة ضدّ اليهود:

ودعت رسالة النحاس ذي الرنين
صاعقة أهالي الريف:
«فليسقط اليهود!» ومن برج إلى برجٍ
يصوّت الخطر المروّع[٢٦]

ويستدعي رنين الأجراس إلى أذهان المسيحيين الغنائم التي تنتظرهم إثر كلّ مذبحة:

إنهم مستعدّون للمذبحة
وفيما يدقّ جرس الكنيسة
يتقاسم الورعون والغوغاء معاً
ما يأتي من غنائم[٢٧]

وتتحول الكنيسة من بيت عبادةٍ وصلاة إلى مجزرة تتم فيها عمليات ذبح اليهود، وسبقت الإشارة إلى قصيدة «شهداء دورتموند» التي وصف فيها تشيرنيخوفسكي كيف ألقيت أمّ وابنتاهامن أعلى سلّم الكنيسة فقتلن. ويشارك الكاهن نفسه في هذه المذابح التي تحصل كثيرا، وهو يمارس ذبح اليهود - كما يقول الشاعر - كلّ يومٍ كما يمارس واجباته الدينية الأخرى:

رجل الصليب لا يمكن إزعاجه
لأنه مشغولٌ كلّ يوم
عليه أن ينشد لرجل الناصرة
ويصوم، ويذبح، ويصلّي[٢٨]

ويتصف مسيحيو تشيرنيخوفسكي بالتعصّب الديني، فهم يعتقدون أنّ دينهم أفضل من دين اليهود، ويجبرون اليهود على اعتناق المسيحية مستخدمين العنف والإرهاب لتحقيق ذلك. يصف الشاعر في إحدى قصائده يهودياً يقف وحيداً تحيط به جموع المسيحيين، وهم يحملون في أيديهم سكاكين يوجهونها صوبه، ويصرخون في وجهه ويلعنونه. ويرضخ اليهودي، لخوفه، لتهديداتهم، ويطيع ما يأمرونه به فيتحول إلى المسيحية:

وانا وسط ذلك كلّه
السكاكين المتوهجة غير المرتوية
والجمع المحتشد الواقف حولي
ينتظر بلهفة
وحين رأيت وجوههم الوحشية الضارية
وإدانة أيديهم الممتدة
أطلقت إجابةً في صوت مكتوم
إنه يوم الرعب[٢٩]

ويجري ذلك كله في الكنيسة مصحوباً بألحان الأرغن وإنشاد الرهبان وجمرات المذبح:

لا أستطيع أن أتذكر
كيف نطقتُ هذه الكلمات في مأزقي
ولكنني أتذكر الكاتدرائية
ونغمات الأرغن، والضوء
بحارٌ من الأصوات ترتفع وتحلّق
وتنتشر في كلّ مكان
بحارٌ من الأغاني، ووقفتُ
عاجزاً، وقد وهنتْ عزيمتي
الكهّان المحتشدون، والرّهبان المنشدون
وجمرات المذبح المحترقة
وصرختُ ناطقاً بإجابة، هل نسيت؟ لا
سأتذكّر ذلك إلى الأبد[٣٠]

ونتيجة لتعصبهم الديني، يدنّس المسيحيون أوراق التوراة ويدمّرون الكنيس ليقيموا مكانه كنيسة ذات برجٍ عالٍ، كلّما قام كاهنها للصلاة أجابته الأجراس، كما يقول الشاعر، داعية إلى مذبحة جديدة:

لقد دنّسوا الكنيس (- وبأوجه الخنازير
لوثوا كلّ ورقة من أوراق التوراة -)
وبنوا فوقه برجاً أبيض طويلاً
وعلقوا هناك مجموعة من الأجراس
وحين يقوم الكاهن للصلاة
تجيبه الأجراس:
بيم - بوم! بيم - بوم![٣١]

ويسمّي تشيرنيخوفسكي المسيحيين «كلاب الدم»[٣٢]، ويلعنهم لا أفراداً وانما الأمة بأسرها:

لتكونى ملعونةً أيتها الأمة القاسية

وليكن اسمك ملعوناً[٣٣].

الأبعاد الإيجابية في صورة المسيحي

كتب بعض النقاد عن قصائد تشيرنيخوفسكي القصصية التي تتناول مشاهد من الحياة الريفية (idyll)، وأكدّوا على أنها تقدّم صورة إيجابية للمسيحي. ففيها يكون اليهود « على اتصال وثيق مع جيرانهم المسيحيين، ولا يتأثرون بهم فقط وإنما يؤثرون فيهم أيضاً »[٣٤] كما يرى كلورنز، في حين ينصّ واكسمان على أنّ « العلاقات مع غير اليهود كانت سلمية وودية، لأنهم اقتسموا كثيراً من الأشياء المشتركة ومن ضمنها الخرافات »[٣٥]. أما سيلبرشلاج فيجد أنّ معاداة اليهود صدىً بعيد وضعيف في هذه القصائد[٣٦].

إنّ قراءة « فاحصة لنماذج من هذه القصائد تظهر خطأ هذه الأحكام، إذ أن اليهودي هو العنصر الطيّب فيها، ويظلّ المسيحي على قسوته، التي صورّها الشاعر في قصائده الأخرى، ولكن بدرجةٍ أقلّ وفي قرينة مختلفة. ففي قصيدة « الختان » يتجاوز ليهود والمسيحيون في قرية روسية تدعى « بيليڤيركا »، ولكن اليهود، في عواطفهم وتطلعاتهم، بعيدون عن جيرانهم وإن كانوا يعيشون قريباً منهم، فهم يسمّون القرية « مصر الصغيرة »، مثيرين بذلك- فيما بينهم - ذكرياتٍ ترتبط بهذا الاسم لا يشاركهم المسيحيون فيها:

رأى قبعته- وقرّر: لا بدّ أنه من بيليڤيركا
(ذلك اسم القرية، أو على الأقل كذلك يدعوها غير اليهود
أما اليهود، فيما بينهم، فقد دعوها « مصر الصغيرة »)[٣٧]

إن اليهودي يشكك في كل مسيحي لأن المسيحي، في نظر اليهودي، يرتبط بالقتل والرعب، ولذلك يثير مقدم المزارع المسيحي غير المتوقع شكوك اليهودي « إلياكيم »، فيسأل نفسه عمّا إذا كان هناك أمرٌ جديدٌ لا يعلم عنه:

حدّق « إلياكيم » صامتاً: ماذا عسى يريد الأجنبيّ؟
وكان من الحيرة بحيث لم يستطع أن يخمّن سبب زيارته
ولذلك بدأ يفكر: هناك في بيليڤيركا
أي أمر جديدٍ أجهله[٣٨].

ثم يدخل الغريب بيت اليهودي ويحيّيه وينقل إليه الرسالة التي يحملها:

وفيما هو يتفكر في ذلك دخل المزارع بيته
كاشفاً رأسه بحكم العادة، ويبدو باحثا عن أيقونة:
« تحياتي! هل أنت الخائن؟ أنا من بيليڤيركا،
أرسلني « پيساخ » لآخذك إليه: لقد ولد لـ « ميركا » إبن
وغداً الحنان. هاك. لقد جئت برسالة! »[٣٩].

ويبدو المسيحي طيّباً، فهو يلاعب ابن « إلياكيم »، ويحمله بين ذراعيه في مرح في حين كان أبوه يهيّء نفسه للرحلة، وبدا الغلام سعيداً:

كان سعيداً في تلك اللحظة، طافحاً بالغبطة
يرفس بساقيه وهو يتأرجح بين ذراعي « ميخايلا » الأجنبي[٤٠].

ولكن ما أسرع ما يظلم المشهد، ويأبى تشيرنيخوفسكي-إلا أن تظهر قسوة المسيحي، وأن يمارس سيادته على اليهود، فيمضي « ميخايلا » في مزاحه مع الغلام اليهودي وأختيه، مهدداً إياهم بسوطه، فتنكمش الفتاتان وترفعان أصواتها بالصراخ، أما الغلام فيكوّر قبضته في وجه المسيحي، فيندهش الأخير لأنه ألف أن يكون السيد وأن يطيعه اليهود، ويعبّر عن سخطه ولكن في تعليق هادىء:

حين هدّد الأجنبي الأطفال اليهود
رفعت الفتاتان صوتيها زاعقتين، لكن الغلام الصغير
رفع قبضته تجاه ذلك الأجنبي، وبدا مستعداً للقتال
وتسمّر « ميخايلا » في موضعه، صامتاً ومندهشاً من الصبي
ثم هزّ رأسه، وتكلّم، كما لو كان يتكلم مع نفسه، معلّقاً:
« إلى أين انحدرنا، واحسرتاه، إذا استطاع اليهود أن يقفوا ضدّنا »[٤١]

وفي الطريق إلى قرية « بيليڤيركا » يغنيّ « ميخايلا » المسيحي أغنية حزينة فيما هو يقود عربته، وهنا تظهر طيبة اليهودي ورقة قلبه، فيتأثر لحزن المسيحي ويتعاطف معه:

ثم رفع « ميخايلا » صوته برفقٍ وهو يغني
أغنية ساذجة حزينة، بريئة،مفعمة بالحنين
....
كذلك كانت أغنية « ميخايلا »؛ ومسّ غناؤه الحزين
قلب « إلياكيم » الرقيق. لقد سمع في أغنية المزارع مرارة
دموع في قلبه الذي ما زال فتياً حافلاً بالقوّة والشجاعة.
ولكنه يشعر بأن عالمه ضيق جداً، ويطلب أفعالاً ومغامرات[٤٢]

وحين يصلان القرية تبدو طيبة اليهودي مرة أخرى، إذ يتحسّس بعاطفية دفء القرية ومودتها:

أضوية المنازل دافئة، تلوح من شبابيكها
تومض مرحبة بالجميع في حب وصداقة وافرين[٤٣]

ويوجّه اليهودي الآخر الطيب « پيساخ » الدعوة إلى غلام مسيحي ليحضر الوليمة ويشاهد الختان ويشارك في الشراب، ويبدو أنّ الغلام « پاسكا » كان يقضي بعض الحاجات لليهود:

يطفىء الشمعدانات الزيتية، ويسخّن غلاية الشاي يوم السبت
يبني أكواخ عيد « السوكوت »، ويشعل المواقد أحياناً[٤٤]

كذلك دعيت المراة المسيحيةإلى الاحتفال، ويبدو من القصيدة أنّ هذه المرأة تعمل لدى اليهود مقابل أجرٍ، ويأبى الشاعر إلا أن يظهر عنصر السوء في المرأة المسيحية، فهي تنعتهم بنعتٍ قبيح على الرغم من أنها تخدمهم:

كانت تستخرج الماء من البئر، وكان أجرها قطعةً أو قطعتين نحاسيتين وخبزاً، وفي الأيّام التي تسخّن فيها الحمّامات
تمرّ خلال شوارع اليهود وتحمل في يديها غصناً
تسير وتصيح بصوتٍ مرتفع، في كلماتٍ كهذه، معلنةً:
« أيها اليهود، إذهبوا الآن إلى حاماتكم! إذهبوا إلى الحمّام أيها المجذومون! »[٤٥]

وفي قصيدة ريفية أخرى لتشيرنيخوفسكي تظهر المرأة المسيحية جارة طيّبة لليهودية، ولكن يأبى الشاعر إلاّ ان يقارن المسيحية باليهودية، فتتضح طيبة المرأة اليهودية وقسوة المرأة المسيحية. هذه صورة المرأة اليهودية الورعة، «كيتيل»، التي تحب الحيوانات وترعاها:

قبل أن تؤدّي صلواتها أحسّت بقطها المرقط
يرقد عند قدميها، يعول ويلحس رداءها
لقد غدا هزيلاً وأخذ شعره يتساقط
(إنه موسم القطط، مواؤهم يسمع في الليالي)
«عارٌ عليك، أيها العجوز الأحمق»، غضبت عليه المرأة المسنة
ثم ملأت كسرة من إناءٍ بالحليب وأعطته إلى القط المرقط
ولعق الحيوان بجوعٍ، وهو خاوي البطن بسبب جولاته الليلية[٤٦]

ومقابل ذلك هذه صورة المرأة المسيحية «دوماها»، التي تكره الحيوانات وتقسو عليها وتتطير منها:

كانت بعيداً في القبو، وفجأة طرق سمعها
نباح الكلب وصوت إنسان يتكلم:
«أخرج، إذهب يا ابن الشيطان». إنه صوت «دوماها» وهي تأتي

ولكن ظل «سيركا» ينبح، ورفعت «دوماها»
عصاها، عصاً من خشب اللوز، فوق ظهر الكلب
وجاءت ضربتها، قويةً، فوق ركبته الهزيلة
وأخذ الكلب يطلق نباحاً نتيجة الألم العنيف وهرب
وهو يثني ذيله الهزيل بين ساقيه ويعرج على ثلاث[٤٧]

وتمضي «كتيل» لتحيّ جارتها المسيحية التي جاءت تزورها، وتردّ «دوماها» برقة ناعتة «كتيل» بالحمامة، ومن العسير، بعد ما أظهر تشيرنيخوفسكي من مظاهر القسوة والساديّة لدى المسيحيين، الركون إلى هذه الرقة والطيبة:

«السلام عليك يا «كيتل» يا حمامتي، وتثبت «دوماها» عصاها
«وكيف صحتك؟ »[٤٨].

وتتذمّر المرأة المسيحية من أن علاقة الناس بخالقهم قد وهنت وأنهم لا يؤدون واجباتهم الدينية. وتتعاطف مع «كيتيل» وتتذكر الأيّام الخوالي حين كان الناس يفون بمتطلّبات يوم السبت، وكيف يخيفها تغيّر الناس، وتنتقد اليهود بالذات على ذلك:

ولكن بين قومك أيضاً هناك مرتدّون ومنشقّون
يأكلون كلّ شيءٍ غير طاهر، والخنزير! وهم حتى يدخنون يوم السبت!
إنني أتذكر حين كنتُ طفلة: كانت الحياة تخمد يوم السبت
الهدوء، الصمت في السوق. كنت أحسّ بالرهبة تقريباً
والآن، إنه عارٌ، أليس عاراً؟ السبت، وهم يتاجرون ويبيعون
إنني خجلة جداً، أنا، ورأسي، من أن أذهب يوم السبت
لأشتري شيئاً من حانوت يهودي. أليس الأمر كذلك يا «كيتل»[٤٩].

وتستمر «دوماها» في تقريعها لليهود ولعدم مراعاتهم قوانين السبت:

كان «زلمان»، تاجر الغنم، لدينا أمس الأوّل
يبيع ويشتري يوم العطلة. «زلمان!» قلت: «هل حقاً
ستخدع روحك؟ هل ستعيش إلى الأبد ولا تموت؟
وإلهك، ماذا سيقول؟ ألست خائفاً من شريعته؟
إن اليوم هو السبت!» وبماذا أجاب؟ إلتفت هذا الـ «زلمان» إلى ابني وقال له: «كريتزا! هل ترغب في أن تعطينا والدتك.
ستكون «الراباي» لنا». ورأسي، هكذا قال، ذلك الوقح[٥٠].

وتؤثر هذه الكلمات في نفس «كيتل»، وتعتقد بأن ما قالته المسيحية صحيح:

كلمات المرأة الأجنبية واقعية، فكرت «كيتل» في أعماقها.
الجيل يتضاءل. ما نحن؟ وأكثر من ذلك، ما أطفالنا؟
«زلمان» تاجر الغنم، وابني، وحفيدتي، «رازيل»، حفظها الله.
واو! واو! هل كنّا وآباؤنا كذلك[٥١]؟.

إنّ هذا المشهد هو الوحيد الذي يرسمه تشيرنيخوفسكي في قصائده لتفاهمٍ إنساني بين اليهود والمسيحيين، ولكنه يتلاشى في ظلمة الصورة الكلية.

* * *

يمكن استخلاص النتائج التالية من هذه الدراسة:

١ - رسم الشاعر المسيحي صورة مظلمة مفزعة تخلو من أي عنصر من عناصر الطيبة، فهو مخلوقٌ قاسٍ ومتوحش، يقتل اليهود لا لسبب إلا للذة القتل. وهو ساديّ يستعذب القتل، ويبرع في اختيار وسائله التي تحمل إليه أكبر قسطٍ ممكنٍ من المتعة. وهو متطرّف في التعصّب لدينه، يرى إلهه ودينه خيراً من إله اليهود ودينهم. فالصورة سلبية تماماً لا يتخلّلها أي بعدٍ إيجابي، فحتى المزارع المسيحي الذي جاء يبلغ الرسالة إلى الخاتن اليهودي لم يخلُ من قسوة لأنه أرهب أطفال اليهودي في بيتهم، والمسيحية «دوماها» ظهرت قسوتها في معاملتها للكلب، ولم يفتها أن تلوم اليهود وتوبخهم. وبالإضافة إلى هذا التطرف في سلبية الصورة يلجأ الشاعر إلى التعميم المبالغ فيه، فهو لا يتحدّث عن أفرادٍ اعتدوا على أفرادٍ، وإنما يظهر المجموعة المسيحية كلها بمظهر المعتدية، ولذلك يلعن الأمة المسيحية قاطبة. إن هذه المبالغة وهذا التعميم يبعدان الشاعر عن الصدق الواقعي والصدق الفني، ويتناقضان مع حقيقة كونه متزوجاً من سيّدة مسيحية.

٢ - يُلبس الشاعر الاعتداءات التي وقعت على اليهود لباساً دينياً، ويظهرها صراعاً بين المسيحية واليهودية، ولذلك يصوّر

حوادث القتل على أنها كانت تحصل في الكنائس، وأنّ الكهان كانوا يمارسون دورهم فيها، وكذلك يدعوها حملاتٍ صليبية. إنّ حوادث القتل الجماعي التي تعرض لها اليهود في روسيا بين عام ١٨٨١ وعام ١٩١٧ بدأت بعد اغتيال القيصر الكسندر الثاني عام ١٨٨١، وبعد أن عُرف أن القاتل كان على صلةٍ بأحد اليهود، وباعثها الرئيس لم يكن دينياً(٥٢).

٣ - شعور اليهود بالأفضلية على سواهم، يؤكد ذلك مقارنة المسيحي باليهودي وتفضيل الثاني على الأول، فـ« إلياكيم » اليهودي أطيب من « ميخايلا » المسيحي، و« كيتيل » اليهودية أطيب من « دوماها » المسيحية. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى مقارنة العربي باليهودي في الأدب الصهيوني، وإظهار سموّ الثاني وضعة الأول(٥٣). ويدفع هذا الشعور بالاستعلاء اليهود إلى عزل أنفسهم عن البلد الذي يعيشون فيه، فيتخذون أحياءً سكنية منفصلة ويحيون لأنفسهم، يدلّ على ذلك أن يهود تشيرنيخوفسكي كانوا يقطنون في قرية « بيليفيركا » الروسية، ولكنّهم فيما بينهم، دعوها « مصر الصغيرة » بعيداً عن كلّ ما هو روسيّ فيها.

٤ - يروي الشاعر الأحداث في قصائده القصصية بطريقة تقريرية وأسلوبٍ صحفي، وتفتقد قصائده الفنية في الكلمة والعبارة والصورة. ويدلّ هذا على أنّ هدف الشاعر دعائي وليس فنياً، ويعزّز المقولة العامة بأن الأدب الصهيوني دعائي يخدم النظرية الصهيونية دونما اعتبارٍ للمقوّمات الفنية.

٥ - ليس من الاستطراد الإشارة إلى الحرية الدينية والدنيوية التي نعم بها اليهود في الدولة العربية الإسلامية لا سيما في الأندلس حيث كان لليهود أدب وثقافة، حتى أنهم يسمّون هم أنفسهم هذا العصر عصرهم الذهبي، وكيف استمرّ هذا التعايش حتى العصر الحديث، ثم كيف انتهى إلى أن يرتكب اليهود تجاه الفلسطينيين العرب مجازر لا تقل بشاعة عن تلك التي وصفها تشيرنيخوفسكي فيما سبق من قصائده.

تونس

الهوامش:

(١) للمزيد من التفاصيل عن حياة تشيرنيخوفسكي يراجع
Eisig Silberschlag, **Saul Tschernichowsky** (New York: Cornell University Press, 1968), pp 3, 12, 12, Mayer Waxman, History **of Jewish Literature** (New York. Thomas Yoseloff, 1960), vol 4, **part 1, p. 260.**

(٢) Tschernichowsky, «Baruch of Mayence» in Saul **Tschernichowsky,** p 154

(٣) Tschernichowsky, «This be our Revenge» in Saul **Tschernichowsky,** p 154

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(٥) Tschernichowsky, «Ballad of the Wolf», in Saul **Tschernichowsky,** p. 185

(٦) «Baruch of Mayence», p 126.

(٧) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٨) «This be our Revenge», p 153

(٩) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(١٠) «Baruch of Mayence», p. 114

(١١) See Menachem Rebalow, The flowering of Modern Hebrew **Literature** (New York Twayne Publishers, 1959), p. 108

(١٢) «Ballade of the Wolf», p 185

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٨٦

(١٥) «Baruch of Mayence», P 118

(١٦) «This be our Revenge», p 152

(١٧) «Ballade of the Wolf», p 186

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٨٦

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٨٥.

(٢٠) Tschernichowsky, «The Bells» in **Modern Hebrew Poetry,** ed. trans Ruth Finer Mintz (Berkeley· University of California Press, 1968), p 68

(٢١) «This be our Revenge», p 153

(٢٢) Tschernichowsky, «The Grave» in **Saul Tschernichowsky,** p 155

(٢٣) «The Bells», p. 66

(٢٤) «This be our Revenge», p 152

(٢٥) See Rebalow, **The flowering of Modern Hebrew Literature,** pp. 106-107.

(٢٦) «Baruch of Mayence», p 114

(٢٧) «Ballad of the Wolf», p. 185.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٨٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١١٥

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٣١) «The Bells», p 68

(٣٢) «This be our Revenge», p 153.

(٣٣) «Baruch of Mayence», p 123.

(٣٤) Joseph Klausner, **A History of Modern Hebrew Literature** (Westport: Greenwood Press, 1972), p 177 Waxman, History of **Jewish Literature,** v. 4, part 1, p 280

(٣٦) See Silberschlag, **Saul Tschernichowsky,** p. 62 Saul Tschernichowsky, «Circumcision» in **Saul Tschernichowsky,** p 99

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٠٠

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٠٤

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٠٥

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٤٦) Tschernichowsky, «Livivot» in **Modern Hebrew Poetry, pp.** 46-48

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٤٨

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٤٨ - ٥٠

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٥٠ - ٥٢.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٥١) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٥٢) See «Pogrom» in **Encyclopedia Britanica** (London· William Benton, 1967), vol 18, p. 94.

(٥٣) تُراجع « صورة العربي في الأدب الصهيوني » لكاتبة هذه الدراسة، الآداب، كانون الثاني - شباط ١٩٨١، ص ٤٠ - ٤٣